سيادة الأستاذ أحمد التيجانى سى

سفير السنغال يقول

- التصوف حقائق خالدة توافق كل زمان ومكان
- سادة أفريقيا وأحرارها هم الصوفية
- بقر الإسلام القادم يبزغ من أفريقيا
- نحن فى حاجة إلى مزيد من علمكم ومن حبكم
- العلوم كلها فى القرآن حتى الصواريخ والذرة

تحت الشمس المتقدة المتوهجة ، و بين الروابى الخضر المتألقة ، وعلى أطراف العالم العربى ، فى الشمال الأفريقى ، تقع السنغال ، أرض الكنوز والأسرار والرجال أصحاب البأس الشديد فى القارة النامية الصاعدة .

القارة الأفريقية التى تتجه إليها أنظار الدنيا اليوم ، كمستودع لا تنفذ ثرواته وكنوزه ، وكقوة عملاقه منطلقة ، توشك أن تغير موازين القوى العالمية ، وأن تصنع وجها آخر للحضارة الإنسانية .

و إلى موكب الأحرار بخطوة الجبار انضم السنغال ، بعد أن حطم قيوده ، ومزق أغلاله وأخذ يرنو بأبصارة إلى مشرق النور ، فى أرض الإسلام والعروبة ، حيث أحبابه فى الجهاد ، و إخوانه فى العقيدة .

و إلى القاهرة قلب أفريقيا النابض ، ومركز الإشعاع الثورى الملهم لقوى التحرير فى الشعوب المناضلة ، أوفدت السنغال أول سفير لها فى الجمهورية العربية المتحدة .

وجاء سفير السنغال كفاء رسالته فى العاصمة الشامخة ، رجل من الطليعة المجاهدة ، ومفكر من الصفوة الهادفة ، ينتمى إلى بيت من أعرق بيوتات التصوف فى السنغال و ينتسب إلى إمام من أجل أئمة الإسلام ، و بين يديه اليوم بجدارة ميراث القيادة

الصوفية ، على أبناء الطريقة التيجانية ، التى تهيمن على الكثرة الساحقة ، من مسلمى غرب أفريقيا كافة .

وفى بيت كريم من بيوتات البطولة المؤمنة ، فى بيت الأمير المجاهد محمد عبد الكريم الخطابى ، كان لقائى الأول مع سيادة الأستاذ أحمد التيجانى سى سفير السنغال .

قامة صاعدة فى شباب متوثب حى ، وعينان فيهما شعاع الذكاء ، وفيهما فوق الشعاع روحانية خاشعة متلألئة ، ولسان عربى مبين ، يتدفق فى منطق هادف ، إلى كل أفق من آفاق الفكر ، ومن آفاق الجهاد الحر ، يتوج هذا كله إيمان بالله ، وبرسالة الإسلام وبمنهج التصوف فى التربية والسلوك والمعرفة .

وامتلأ قلبى بحديث السفير المسلم الصوفى فأحببت أن أجمع بينه وبين قراء — مجلة الإسلام والتصوف — يلتقون به على صفحاتها التى ترحب دائماً بكل لقاء وحديث ، يعمق فى القلب الروح والإيمان ، ويوسع قاعدة الحب والإخاء ، ويدعم صلات المودة والتعاون بين الشعوب ، التى تحمل اليوم أمانة الله فى أرضه ، وتحفظ وحيه بين عباده .

وتواعدنا على لقاء ، وفى غرفة السفير المطلة على النيل بفندق «هيلتون» كان هذا الحديث الممتع المشرق .

س : كيف انتشر الإسلام فى السنغال ، وما عدد المسلمين هناك ؟

ج : هناك طريقان سلكهما الإسلام ، وهو فى طريقه إلى السنغال ، ليخرج أهله من الظلمات إلى النور .

الطريق الأول ، كان عبر — موريتانيا — حيث جاء إلينا منه رجال من التجار العرب حيناً ، ومن الدعاة الصوفية أحياناً .

والطريق الثانى ، كان من المغرب العربى ، فى حدود القرن الرابع الهجرى ، حيث

أخذ رجال من المرابطين ، الذين نذروا أنفسهم لله وللدفاع عن الإسلام والدعوة إليه يتدفقون على السنغال دعاة مرشدين ، وبالموعظة الحسنة ، والأسوة الطيبة ، استطاع الصوفية من أبناء المغرب العربى ، أن يجعلوا للإسلام الكلمة الأولى فى السنغال .

وتبلغ نسبة المسلمين اليوم عندنا ٩٥٪ من أبناء السنغال .

س . ما هى أشهر الطرق الصوفية عندكم ، وكم يبلغ عدد أبنائها ؟

ج : أشهر الطرق الصوفية عندنا ، التيجانية ، ثم المريدية ، وعندنا عدد قليل من أتباع القادرية ، وحسبى أن أقول لك ، إن المسلمين عندنا صوفية جميعا تقريبا .

س : ما هى الوسائل التربوية التى تتبعها التيجانية فى إعداد مريديها ، ليكونوا مواطنين صالحين ؟

ج : لكى أقدم لك صورة كاملة عن هذه الوسائل ، أحب أن أحدثك عن زعيم من أكبر زعماء التيجانية ، بل من أكبر زعماء الإسلام فى أفريقيا ، هو جدى الحاج مالك ، وكان فى طليعة الأدباء المرموقين ، ومن حملة الأقلام المناضلين ، وعلاوة على هذا ، فسيادته زعيم مرموق فى ميادين الكفاح السياسى والوطنى ، وله عدة مشروعات هادفة ، نذكر منها مشروع بناء جامعة إسلامية فى مدينة — تفافون — ومشروع تنظيم الاتحاد للجمعيات الثقافية الإسلامية وتنظيم المدارس التابعة لها .

وأحب أن تعرف أن بلادنا من حيث الثقافة الدينية ، تعتبر متأخرة جداً عن الحالة عندكم .

فالوعى الدينى ضئيل هزيل ، ومن هنا سيطرت عندنا العادات والطقوس الهابطة وتحكمت فى قلوبنا وعقولنا .

ونظر جدى الحاج مالك فرأى أن المسلمين معرضين عن إنشاء المدارس والمستشفيات والمتاجر ، فقد سيطر عليهم شيوخ جهلة ، يقدمون لهم التمائم والتعاويذ لتمنحهم الصحة والمعرفة والمال ! ! ؟ دون عمل أو كفاح أو جهاد ونشأ عن هذا

أن تواكل أتباع هؤلاء الشيوخ وقنعوا وأخلدوا إلى الأرض وضربت عليهم الذل والمسكنة .

كان هؤلاء الشيوخ في الجهلة يتصايحون صباح مساء ، بأن كل تجديد أو تغيير هو بدعه ! ؟ وهو ضلالة ! ؟ كانوا يبيعون أسماء الله تعالى ، وكانوا يتقنعون بالأسرار وبالقداسة ، ويوهمون أتباعهم بقدرتهم على الخوارق ، ويزعمون أن هذا كله . . . من الكتاب ، ومن السنة ! !

نظر جدى إلى هذا كله ، فوضع منهجا تربويا ثقافيا إيمانيا لينير به القلوب والعقول ، ويرشد الناس إلى أنوار الكتاب ، وهدى السنة .

وأخذ يغير هذه المفاهيم الضالة ويكشف زيفها ، وصلتها بالإستعمار ، ويقول للناس : إن المدارس والمستشفيات والصناعات والعلوم ، ليست تغييراً فى الدين ولا بدعة فيه ، إن الدين يأمر بالعلم وبالعمل وبالقوة وبالعزة ، كما يأمر بالصلاة والزكاة .

إن المدارس والمستشفيات والصناعات الفنية ، والعلوم الحديثة ، ليست تغييراً فى الدين ، ولا بدعة فيه ، إن هناك تطوير وتغيير .

فالتغيير ، هو أن تغير شيئاً من الدين وهذا هو المنكر ، وأما التطوير ، فهو أن تجدد نفسك وعاداتك وتقاليدك ومعارفك ، بما هو أكمل وأهدى وأقوم

فالبدعة إن كانت حسنة ومستحسنة ، فهى من باب التطوير لا من باب التغيير .

والرسول صلوات الله عليه يقول : « من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

وكان يأمر أتباعه بالعمل وبالإحتراف ، ويجعلها ذروة الإيمان ، وكان ينهى عن التواكل ، وعن السؤال ، ويقول إن السؤال يقطع المريد عن الوصول إلى الله .

وكان يرسم المثل الصوفية العليا ويصورها فى صور فاتنة جميلة بسيطة ليقربها إلى العقول والقلوب

وكان يقول لما رأى انتشار الرشوة باسم الهدية : كانت الهدية هديه فى زمن الرسول ، أما اليوم فقد صارت رشوة ! !

وكان ينهى عن الأكل باسم الدين ، وعن أخذ الأموال باسم الشفاعة ، وكان يقول : أكلها باسم الدين ، شر من أكلها بالدف والمزمار ، لأن أكلها بالدين يصيب الأسلام كله .

وكان يقول لما رأى الشيوخ المزيفين : شرط الشيخ أن ينظر فى نفسه فإن علم منها الأتصاف بالعلم والتحقق بالعمل ، دعا من أحب ونصح المسلمين ، وإلا ترك المشيخة ، ونظر فى إصلاح نفسه ! ؟

وكان يقول حينما رأى الأحقاد والخصومات بين شيوخ المسلمين : أين الكتاب والسنة من هذه القلوب القاسية المتنازعة ؟ أين الكتاب والسنة من هذا الحقد الذى يملأ جو المساجد والزوايا ، وأين الكتاب والسنة من هذا التساقط الذى يجعل المسلم البسيط ، أولى بالأحترام ممن يدعى الإمامة فى السنغال ! ! ؟

جاهد جدى فى محاربة الشيوخ الجهلة ، ليمسح عن أعين أتباعهم غشاوة تضليلهم وخداعهم وجهلهم وجمودهم ، ثم أخذ ينشر بين أتباعه مبادىء الإسلام السمحة الفطرية ، الصدق والأمانة والشرف ، والمحبة والإخاء والعزة التى تأبى الخضوع لمستعمر ، ثم لقنهم بعد ذلك أدب السلوك الصوفى ومقاماته وعبادته .

ثم علمهم أن المسلم حقاً هو الأقوى والأعلى ، وهو صاحب الكرامة والعزة ، ولن تكون له هذه الصفات إلا إذا تعلم ومهر فى العلوم والفنون والصناعات ، وأخذ بأسباب الحياة وسننها ، واتجه إلى الله وحده ، ونفى عن قلبه أصنام الناس وأصنام المادة .

وهو جهاد لا يعرف قدره ومشقاته ، إلا من لمس حالة الأمية البدائية التى كان الناس عليها عندنا . . . ولعل فى هذا كله الجواب على سؤالك .

س : ما هو أثر التصوف فى نفسك وما هى الحكمة الذهبية الصوفية التى تتمثلون بها دائما ؟

ج : كنت فى أول أمرى أتتبع بعض الآثار التى تتعلق بحياة رجال الصوفية ، معجبا بأدبهم وإيمانهم وترفعهم ، وكنت أحب جدى لهذه الصفات حبا جما ولم أره ، وكان له صاحب يسمى بالأستاذ على بن إبراهيم ، وهو إنسان ليس له مثيل فى الفنون كلها ، كان عالما ورعا محبا للعبادة ، ويحب العلم إلى الغاية ، وكنت أتحدث معه فى كل ساعة ، وأنا فى الخامسة عشر من عمرى ، وربما قال لى : والله لو عاصرت جدك لكنت مسرورا به ، وكان مسرور بك ، وربما قال لى أيضاً : أفكار الجد تحيافيك .

ثم انبثق فى قلبى فى المرحلة التالية شكوك حادة حملتنى على ترك كثير من الكتب ثم أنقذنى الله من هذه الشكوك بالقرآن الكريم ، فأقبلت على حفظه وتدبره ومناقشة العلماء فى تفسيره .

وفى ذات يوم عرضت لى مشكلة فى تفسير بعض الآيات فذهبت إلى والدى الحاج أبو بكر خليفة التيجانية ، التمس لديه الحل الصحيح ، فقال لى : يا بنى العلم شىء واليقين شىء آخر ، فابحث عن العلم الذى يوصلك إلى اليقين .

ومن هنا أخذت أتذوق القرآن بقلبى وروحى فوجت برد اليقين ، وكان هذا سبيلى إلى التصوف الذى رأيت فيه خلق القرآن وأدبه وعزماته وحقائقه .

إن التصوف يلهم اليقين ، كما ينفذ إلى جوهر الحقيقة ، الحقيقة التى لا تخيم عليها العبارات التى تسمى باللغات .

وحقيقة الموت مثلا نحن نفزع إذا ذكر هذا الاسم — الموت — وذلك لأنه سمى بالموت ؟ ، وهذا الاسم يخيم على الحقيقة ، التى هى رجوع الإنسان إلى مقره الأخير ، رجوعه من هذا العالم المادى ، من هذه الآثام ، من هذه الفتن ، من هذه المصائب ، إلى الحضرة التى نشأ فيها من قبل .

هذه الحقائق التى هى جوهر التصوف ، وهو اليقين الذى يصل إليه الصوفى ،

أو هو المعرفة الباطنية ، ومن هنا كان جدى يقول : التربية بالهمة والحال ، خير من التربية الإصطلاحية

أما الحكمة الذهبية الصوفية التى لازمتنى دائماً ، فهى « دنيا الناس فى قلوبهم تستعبدهم ، ودنيا العارف فى يده يسخرها » .

س : باعتباركم خليفة للتيجانية فى السنغال ما هو المنهج الذى أعددته للنهوض بهذه الطريقة ؟

ج : توليت زعامة التيجانية بعد وفاة أبى منذ ثلاث سنوات ، فاتجهت بكل قواى إلى التنظيم الشامل ، فنظمت الطريقة تنظيما عصريا فى دوائر متعددة ، فى كل منطقة من المناطق دائرة مستقلة ولها مكتبتها ورئيسها وسكرتيرها وصندوقها .

ثم أخذت أحقق لهذه الدوائر وحدة على مستوى الكاتب — اتحاد الدوائر — هذا الإتحاد نظمنا له جمعية ثقافية إسلامية لتشرف على الدوائر وعلى الإتحاد ، وتحقق للشباب المثقف مجالا ينطلق فيه ، ويعمل فى أفقه ، وبذلك اتسعت مجالات دعوتنا وتطورت تطورا عصريا هادفا يلائم مقتضيات العصر وخطوه .

وفى الوقت نفسه حرصت الحرص كله ، على تزويد هذه الدوائر والإتحادات بالثقافة الإسلامية ، والتربية الروحية النقية ، وإعداد جيل من المرشدين الهداة ، الفاقهين لأدب التصوف ورسالة الإسلام ، فلاشراف الروحى ، ولتوجيه أبناء الطريقة إلى النشاط الحيوى العملى فى الحياة .

س : ما هو دور الطرق الصوفية فى نشر الإسلام فى أفريقيا .

ج : فى الإفريقية قابلية طبيعية للتصوف ، ولهذا استطاع الصوفية أن يمشوا بالإسلام إلى كل مكان فى أفريقيا ، مبشرين ودعاة يصاحبهم النجاح العظيم دائما .

كما وقفوا كالأسوار التى لا تقتحم فى وجه بعثات التبشير العالمية يحمون قلب أفريقيا وعقلها من إغرائهم وتبشيرهم

وإن نظرة إلى الكتب الأوروبية وما يكتب فيها ، وإلى ندوات المستشرقين وما يلقى فيها حول هذا الموضوع ، ليرشد إلى ضخامة الدور الذى يقوم به الصوفية نحو صبغ أفريقيا كلها بالصبغة الإسلامية .

س : ما هو مستقبل الإسلام فى أفريقيا ؟

ج : أفريقيا قارة الغد وقارة الإسلام بلا ريب ، وإنما أفريقيا تحتاج إلى معاونة العرب والمسلمين ، تحتاج إلى الثقافة الإسلامية ، وإلى التوجيه والإرشاد من إخوانهم العرب .

س : هل يصلح التصوف كوسيلة لأعداد المواطن الصالح فى عصر الذرة والفضاء .

ج : التصوف حقيقة خالده ، توافق كل عصر ، ولعل العالم اليوم أحوج ما يكون إلى الروحية الصوفية بما فيها من خلق وتسامى وحب و إخاء وتعاطف ومرحمة ، لكل كائن حى ، بل حب ومرحمة للكون كله .

والذرة من علوم الصوفية ، إن العلوم كلها تعود إلى الخالق سبحانه والصوفية يتعلمون العلم التجريبى ، كما يتلقون المدد والإلهام والمعرفة الربانية .

ولقد ألقيت محاضرة فى — دكار — تحت عنوان « الآيات منطق الألوهية » قلت فيها . إن هذة القنابل وهذه الصواريخ وكل شىء فى القرآن الكريم .

يقول الله تعالى « كانتا رتقا ففتقناهما » والصواريخ تنبعث رتقا ثم تتفتق فيهبط جسدها إلى الأرض ، و يصعد رأسها الأعلى إلى السماء .

و يقول سبحانه : « والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع » يقول القرآن هذا فى عصر كانت الإنسانية فيه على فطرتها ، لا تعلم من أمر هذه المعرفة الكونية العليا شيئاً .

فالتصوف إذن تقدمى وعلمى ، لأنه يرتبط بالله المحيط بكل شىء بالله سبحانه الذى جاء قرآنه موجها العقول والقلوب إلى التأمل والتفكر فى ملكوت السماء والأرض لتعلم كل شىء ، وتحيط بكل شىء ، فيكون علمها واحاطتها عبادة وفقها وتصوفا خالصا لوجهه الأعلى .

ذلك التصوف يصلح هديا وتوجيها لعصر الذرة والفضاء ، كما يصلح هديا وتوجيها لأى عصر من العصور لأنه حقيقة من حقائق الروح ، ومن حقائق الإيمان ، والحقائق لا تتغير بزمان أو مكان .